الفصل الثانى

فلسفة الطب الشعبى

أشرنا من قبل الى أن فلسفة العلاج فى الطب الشعبى تقـــوم على الاعتقاد بأن لكل داء دواء ، ومن ثم فان كل مرض من الممكن شـــفاؤه ، ما لم تكن نهاية المريض مقدرة فى تلك اللحظة ، وهنا يستحيل على أى طب أن يغير مشيئة الله • ولكن داخل هذا المفهوم العام نجـــد أن المعتقـــد الشعبى يفسح مكانا كبيرا لعوامل المرض الراجعة الى عوامل « نفسية » أو قل سحرية ، أو بمعنى آخر تلك التى لا ترجع الى أسباب مادية معروفة ملموسة • فكثير من الامراض (يستوى فى ذلك الحمى ــ ارتفاع درجـــة حرارة الجســـم ــ أو الصرع أو حتى العمى) يمكن أن تنقل بالعين أو الحسد(٤) •

ويندرج تحت هذا البند أيضا تأثير الكائنات فوق الطبيعية وأبرزها الجن ، فهى قد تعمل على الحاق الامراض بالفرد • مما دعا الشبلى الى أن يقول : « ••• ولقد علم أبقراط من طبه أن للنفس تأثـــيرا عظيما فى البدن أعظم من تأثير الاسباب الطبية وكذلك للجن تأثـــير فى ذلك • قال صلى الله عليه وسلم فى الحديث ان الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم • وهو البخار الذى تسميه الاطباء الروح الحيوانى المنبعث من القلب السارى فى البدن الذى به حياة البدن »(٥) •

ولما كان المرض يمكن أن يرجع الى عوامل نفسية أو روحية وأخرى

---

(٤) أحمد أمين ، قاموس العادات والتقاليد والتعابير المصرية ، القاهرة، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

(٥) الشبلى ، آكام المرجان ، مرجع سابق ، ص ٦ .

مادية عادية ، فان العلاج يمكن ــ أو يتحتم أحيانا ــ أن يتم بوسائل سحرية من نفس الطبيعة كالرقى والتمائم وما الى ذلك ، كما قد يتم بالاساليب الطبية التقليدية أو باستخدام مشرط الجراح أيضا • ولكن الملاحظ على أى حال أن الفئة الاولى من الوصفات تحتل المكانة الابرز والاسبق • حتى بعض الوصفات الطبية العادية تفرض عليها بعض الشروط والتحفظات والقواعد التى من طبيعة سحرية خالصة ، على نحو ما سنرى تفصيلا فيما بعد(٦) •

اذا انتقلنا الى التساؤل عن مضمون الوصفات العلاجية بنوعيها ، فسوف نجد أن الفئة الاولى ــ ذات الطبيعة السحرية ــ تضم كل العناصر المستخدمة فى الاعمال السحرية العادية : كالاسماء ، والآيات القرآنية (مجافاة للروح الاسلامية الصحيحة) ، والحروف ، والارقام ، والاشياء المادية كطاسة الخضة والاحجبة •• الخ ذلك مما أوضحناه تفصيلا فى باب السحر من هذا الكتاب • (انظر الباب الثالث) •

أما عن المواد والعناصر المستخدمة فى النوع الثانى من الوصفات العلاجية ، وهى الوصفات الطبية بمفهومها التقليدى ، فهى كل العناصر التى تتيحها البيئة الطبيعية من نباتات وحيوانات • وكلها أشياء عادية قد تستخدم كما هى ، وقد تعالج على نحو معين ، قد يكون شديد التعقيد أحيانا ، كما سنرى فيما بعد • وليس من الضرورى أن يستخدم العنصر النباتى أو الحيوانى كله ، بل ان الامر قد يقتصر ، كما هو الحال عند استخدام عنصر حيوانى ، على عضو منه ، أو على افرازات ذلك الحيوان • ولكن القاعدة العامة أن تكون موادا عادية مألوفة كالعسل أو الزيت ••• الخ(٧) •

---

(٦) وليس هذا مقصورا على مجتمعنا فحسب ، ولكنها ملاحظة عامة يؤيدها ما ذهب اليه الكسندر كراب فى كتابه علم الفولكلور ، مرجع سابق ، ص ٣٠٧ .

(٧) انظر شواهد على ذلك فى مصر الفرعونية عند رانكة، مصر والحياة=

الا أن هذه العناصر النباتية أو الحيوانية لا تستخدم فى الغالب كما هى بحالتها الطبيعية . وانما يتطلب الامر تقييدها بعـــدد من الظروف ، والقواعد ، والاجراءات الفنية • أول هذه القيود وأبسطها قصر استخدام العنصر على وقت معين • وقد يكون هذا القيد الزمنى مجرد عامل فى زيادة فاعلية الدواء وضمان تأثيره ، ولكنه قد يكون فى حالات أخرى شرطا لازما لنجاح العلاج . بحيث أنه اذا خالفه المريض ، فقـدت الوصـفة الطبية فاعليتها • وقد ينصح باستخدام هذا الدواء فى جزء معلوم من اليوم — ليلا أو نهارا ، أو قبل طلوع الشمس أو قبل غروبها — أو فى فصل معين من فصول السنة • وهناك وصفات أخرى لا ينص فيها على قيـــد زمنى معين، فتلك يمكن استخدامها فى أى وقت(٨) • ولعل هذا القيد يفهم بشكل أفضل فى ضوء معرفتنا بالخصائص المميزة للأوقات كما يستخدمها المشتغل بالسحر • فلكل ساعة من ساعات اليوم ملك خاص موكول بها •• الخ وهى تفاصيل يمكن استيعابها بشكل أفضـــل بالرجـــوع الى الباب الخاص بالسحر • (انظر الباب الثالث) •

ومن القيود الاخرى تعقيد الوصفة الطبية بكثير من التفاصيل • ومن ألوان هذا التعقيد أن تضم الوصفة عديدا من العناصر ، وأن ينص على كميات متفاوتة من هذه المواد •• الخ • ولقد أشار رانكه الى وصفة طبية

= المصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٤ . أما بالنسبة للمجتمع المصرى المعاصر فتؤكد ذلك الخبـــرة العامة ، بصرف النظـــر عن التفصيلات والتحفظات التى سنوردها فيما بعد . وانظر كذلك وليم لين ، المصريون المحدثون .. ، مرجع سابق ، ص ١٨٨ .

(٨) أورد رانكة فى كلامه عن الطب المصرى القديم نفس الملاحظة حيث بين أن « هناك أدوية كثيرة كانت لا تستعمل الا فى فصول خاصة من السنة . فمن الوصفات الخاصة بالعين نجد وصفة يقتصر اســـتعمالها على الشـهرين الاول والثانى من فصل الشتاء وأخرى تستعمل فى الشهرين الثالث والرابع ، وثالثة ذكر قصدا أن استعمالها جاء خلال فصول السنة الثلاثة جميعا » .
انظر رانكة ، مصر والحياة المصرية ، مرجع سابق ، ص ٣٩٢ .

مصرية قديمة عبارة عن لاصقة (لزقة) تتركب من ٣٧ مادة مختلفة(٩) • كذلك يشترط فى بعض الوصفات أن تضم مواد نادرة يصعب توفيرها ، أو أخرى منفرة مقززة تتميز بالغرابة • ومن العنـــاصر التى كانت تتردد فى الوصفات الطبية منذ أقدم العصور وحتى مطالع العصور الحديثة : دم وأسنان الخنزير واللحم النتن والدهن الفاسد العفن وافراز آذان الخنزير ولبن المرأة الحائض ومئات من أمثال هذه الاشياء(١٠) • ومن أهم تلك المواد الغريبة الافرازات بأنواعها • فافراز الكبار والصغار والحمـــير والوعول والكلاب والقطط وما الى ذلك من أنواع الحيوان حتى نصل الى وســـخ الذباب الذى يوجد على الجدران • هذا بالطبع فضلا عن فضلات الانسان وافرازاته كالبول وصماخ الاذن •• الخ • خاصة تلك الاجزاء من افرازات الانسان التى تتمتع بأهمية كبيرة فى نظر المعتقد الشعبى بسبب اتصـــالها بجوهر الانسان ، أو لانها تمس العنصر المقدس فيه وهو الروح • وهى أمور سوف تزداد اتضاحا عندما نتناول المعتقدات الشعبية الدائرة حول الانسان والجسم الانسانى فى باب لاحق من هذا الكتاب • (انظر الباب السابع) •

تلك بعض الملاحظات والاشـــارات العامة المتصلة بموضـــوع الطب الشعبى ، والتى ستزداد وضوحا واكتمالا على امتداد معالجتنا لجوانب الموضوع المختلفة فى الفصول التالية • ولكن لنتساءل عن خطة تقسيم هذا الموضوع التى الترمناها فى عرض فصول هذا الباب •

تنقسم الوصفات الطبية بشكل عام الى قســـمين رئيسيين : الاولى وقائى والآخر علاجى • أما الوصفات الوقائية فتنقسم بدورها الى أنواع

---

(٩) فى هذا يقول رانكة ان الطب المصرى شـــأنه فى ذلك شـــأن كل طب شعبى كانت تسيطر عليـــه تلك الفـــكرة التى تقول بأن الدواء يجب الا يكون بسيطا او عاديا . فالوصفة ينبغى أن تحتوى على كثير من المـــواد ان أمكن ، وأشار الى اللاصقة المذكورة ، انظر مصر والحياة المصرية ، مرجع ســـابق ، ص ٣٩٣ .

(١٠) انظر مزيدا من الشواهد على ذلك عند رانكة ، المرجع السابق ، ص ٣٩٣ وما بعدها .

متعددة حسب الغرض منها • فبعضها ليست له طبيعة طبية واضحة ، ولكنها أقرب الى النصائح أو الوصفات الجمالية العامة ، فهذه وصفة لمنع ظهور الشعر فى مكان غير مستحب أن ينبت فيه شعر ، وأخرى وصفة لجمال البشرة والحفاظ عليها ، وثالثة لتوسيع العيون واكسابها لمعانا وجمالا •• الخ • ثم هناك وصفات وقائية بالمعنى الدقيق ، تكون أقرب الى النصائح والارشادات الطبية المتخصصة ، فواحدة لتجنب التخمة ، وأخرى للوقاية من الحمى ، وثالثة لتجنب سقوط الشعر •• الخ •

أما الجسم الرئيسى لهذا الباب فتمثله دون أدنى شك الوصفات الطبية العلاجية بمفهومها التقليدى • وهذه تنقسم بدورها الى طائفة متنوعة تتباين حسب أسلوب تناول مؤلف الطب الشعبى ، أو أسلوب استيعاب العقلية الشعبية ، أو المجال الطبى نوعه • فهذه وصفات علاجية تنطلق من العنصر نفسه فنقرأ أو نسمع مثلا عن الخصائص العلاجية للينسون أو لزيت الخروع ، وكيفية استخدامه فى علاج الامراض المختلفة• ثم هناك طائفة أخرى من الوصفات لا تتخذ العنصر النباتى أو الحيوانى منطلقا لها ، وانما تنطلق من المرض نفسه ، فنقرأ أو نسمع عن وصفات لعلاج الحمى ، أو لعلاج بياض العين ، أو الكساح •• الخ فالتصنيف هنا يتم حسب الامراض وليس حسب العناصر المستخدمة • ولكن هناك بعض الامراض التى لا يفيد فيها العلاج التقليدى بالعقاقير المعروفة ، ولكنه يستلزم علاجا من نوع آخر كالكى بالنار ، أو الدفن فى رمل ساخن ، أو اجراء جراحة معينة • ولذلك سوف يمثل هذا الموضوع الجزء الثالث من الفصل الرابع عن الوصفات الطبية العلاجية • ثم هناك عدا هذا طائفة من الامراض التى لايحسن علاجها الا بالاستحمام أو الشرب أو الاغتسال فى بعض العيون المائية التى تتميز مياهها بخصائص طبية مفيدة لعلاج هذا المرض أو ذاك •

على أن اهتمامنا فى دراسة الطب الشعبى لا تقتصر على تتبع الوصفات الطبية وما تتضمنه من عناصر وعقاقير مختلفة ، وان كان هذا

الجانب يمثل محور الارتكاز وبؤرة الدراسة فى هذا الموضوع • ولـــكن هناك علاوة على هذا الجانب الاجتماعى فى المرض والصـــحة • فالمريض تجب زيارته ، ولهذه الزيارة قواعد وأصول ولها آداب يجب مراعاتها •

وكما سبق أن ميزنا فى حديثنا عن السحر بين السحر الشعبى الذى يمارسه كل الناس ويلم به الصغير والكبير ، وبين السحر الرسمى الذى يمارسه ساحر محترف متخصص لهذا العمل يتقاضى عنه أجرا فى الغالب ، كذلك الحال فى الطب • هناك آلاف الوصفات التى يعرفها جمهور الشعب ويمارسها دون تدخل شخص محترف ، ولكن هناك حالات أكثر تعقيدا أو أكثر خطورة تتطلب تدخل الطبيب الشعبى • وهذا المطبب شخصية محورية فى المعتقد الشعبى عند كل الشعوب ، وان كنا لا نلمس اليوم مكانته بشكل واضح ، حيث طغى الطبيب الحديث على مكانته • الا أن هناك عديدا من الملامح التى تميز هذا الشخص ، وتحيط به ، وتؤسس مكانته بين الناس ، وتحدد طبيعة عمله الطبى بينهم •

ثم هناك أخيرا بعض المصادر غير الطبية فى طبيعتها التى تكشف عن ثروة من المعتقدات والمعارف الطبية • اما لانها تعكس لنا فلسفة المرض والعلاج فى المعتقد الشعبى ، كالعناصر الادبية المختلفة من قصص وأمثال ، أو لانها تقدم نماذج لعدد من الوصفات الطبية المتبعة فى بلاد أخرى (كما نطالع فى كتب الرحلات) فنثرى بذلك الثروة الطبية لدى الشعب •